فضل مصر على الشرق

حفلة الامس جمعها وزير مصري خطير تحت رياسته العالية وافتتحها بكلمات لا تخلق مثيلاتها الا من مثل ذلك القلب الكبير . وتوسط عقدها شاب مصري حرّ الفكر ذكي الفؤاد . وختمها شاعر مصري ما اشتهر في وادي النيل شاعر اكثر منهُ . وجاءت بعد قصيدته كلمة كبيرة المعنى لرجل مصري آخر شديد الغيرة حاد الذكاء . ذلك والراحل السوري الكبير يطلّ على جمهور الاحياء من خلال صورته الساكنة مستمعاً لاقوالهم بنظرة وبسمة كثيراً ما نراهما في صور الموتى . نظرة آتية من بعيد من وراء تموج الاثير وخفيف الافلاك من اقصى اقاصي حياة الضياء الخالد . وبسمة آتية كذلك من بعيد من الروح الحائمة وراء النجوم وكأن فيها اشفاقاً على الاحياء وآلامهم وانفعالاتهم وما يتفرع منها

اجمل نعت أعطي بالامس للرحوم الدكتور شميل جاء من حضرة صاحب المعالي حشمت باشا اذ دعاه « رسول علم ونور »

نعم كذلك كان الدكتور شميل . رسول علم لشرقنا الذي كان لدهر آمناً في جهله يستنكف هزة يد قوية تذكرهُ بان في كيانهِ شرارة الحياة . ورسول نور الى ليلة ليلاء خيمت في افقها ظلمات تركبت اطباقها من جهل وخرافات ودعوى . الى يقظ الفؤاد متلهب الذكاء نبيل الفطرة و بعث بانوار فكره الوهاج في غياهب ذلك الليل الادهم — وان كانت تلك الانوار اقرب الى السنة اللهيب اللاذع منها الى الاشعة اللطيفة المنبهة

***

سلام على « رسول العلم والنور »

« سلام على تلك الروح الطاهرة » التي على رغم ما انتابها من مصائب الدهر وكوارثهِ وعلى رغم ما كان الاصقها من حدة وما منيت به من انفعال قد حفظت عن الطفل طيبتهُ وبساطتهُ وبسمتهُ في الحياة وفي الموت . شهد ذلك من رآى الدكتور شميل نائماً نومتهُ الاخيرة في نعش عمرتهُ اكاليل الورد المصرية وهو في وسط ذينك السكون والحزن الشاملين يسير بسمة ما اشبهها ببشاشة الحياة منها بعبوس الموت . ونحن اصدقاؤهُ الجاثون حولهُ وقد التاع منا الفؤاد حسرة كنا اذا ما نظرنا تارة الى هالة الجلال المحيطة بوجههِ واخرى الى البسمة العذبة التي تثني شفتيهِ لا نلبث ان نشعر بالدموع تجف في اعيننا لتغلب

السكون على اللوعة ازاء تلك السمة العجيبة متسائلين كيف يمكن ان تمتزج رهبة الموت بمثل هذا اللطف الساذج

ولكن كذلك الحياة رهبة ولطف — التياع وجمود — نعش وزهرة — عين تتأمل باكية وعين تنام باسمة — رواية مفجعة ورواية هزلية تمثلان جنباً الى جنب . كذلك هي الحياة

سلام على من كان انوفا شديد الحياء يربأ بنفسه عن مواطن الذل ويتجافى بها عن مطارح الهوان . سلام «على نفس ابية زاهدة» تنفذ بصرها الى اعماق قلب الانسانية المعذبة فتفطرت لمشهد اوجاعها واحتياجاتها وآمالها الذاوية . سلام على نفس احبت الانسانية حباً جماً حباً متناهياً احبتها في عظمتها ومجدها فاشارت الى المتأملين بان يقفوا متهيبين . احبتها في جهلها في فقرها في مرضها في نقائصها فانحنت عليها تواسيها . وكم كان الطبيب في الدكتور الشميل اباً والعالم محسناً والاستاذ مداعباً والمهذب القاسي صديقاً شفيقاً ! احبت الانسانية حتى في ظالميها فضربتهم ضربات مؤلمات قائلة ان كونوا منصفين

***

كذلك كانت الكلمة المصرية معبرة بالامس عن حرقة النفس السورية . فهل تشكر مصر بكلمات وهي كلمة كريم لا تطيق كلمات الشكر . ام تكشف لها عن حب صادق كامن في اعماق القلب وهي ادرى بما هو عليه القلب العربي من قوة الحب وذكر الجميل

قبل عشرات مئات من الاعوام قبل عهد ايزيس وعشتروت . قبل المدنيتين المصرية والفينيقية يوم كان العنصر العربي ضائعاً بين العناصر القوية المحتفلة في ذلك الحين على مدنية العالم كان القلب العربي ينبض بقوة ينبض محبًا وينبض شاكراً

ولما ظهر قبيل القرن السادس مبرزاً لتلاقي اشعة الفنية التي لم يكن يعرف لها المؤرخون طفولة وحداثة والتي ستظل فتية ابداً — وكان الراعي العربي ينام على ظهور الى جنب خيمته على مقربة من اغنامه وعقارب شعره الاسود تداعب وجنتيه بينما عيناه الطويلتان ترتفعان نحو الافق لتظلم مراقبتين حركات الكواكب ومتأملتين اسرارها اذ ذاك كان العربي يضع يده على قلبه ذاكراً في اصفى ساعات تأمله الفلكي محبوبه واثر الجميل في نفسه

ولما تجمعت قواه وعلت موجة مدنيته فغمرت افريقيا وشطراً كبيراً من آسيا وجزءاً يذكر من اوربا يوم كان جائلاً في ساحات الوغى طالباً لوطنه عظمة ولمدنيته اتساعاً لم يكن ينسى حب العظمة عاطفتين غذاهما من زبدة روحه : الحب وذكر الجميل

ثم تبعثر العنصر العربي ومرت عليه عبر سياسية مختلفة وتناولت ايانه عقائد دينية

متنوعة وداهمتهُ احوال اقتصادية كانت ترفعهُ تارة وتهبطهُ اخرى . والآن تلذع فكرهُ شرارة المدنية الاوربية وتذكرهُ بانهُ كان عظيماً فيتحفز للنهوض قوياً . في جميع هذه الحالات في الشقاء والهناء كان العربي يحني على قلبهِ متلمساً اثار عاطفتين خالدتين : الحب وذكر الجميل

فما عسى ان يقول الشرقي للعربي ؟ اليس القلب العربي الخافق في صدر السوري هو القلب العربي الخافق في صدر المصري ؟ وكفى بذلك الخفوق المتشابه قولاً جميلاً

***

وانت ايها الزعيم الراحل لئن بعُد على نعشك شاطىء سوريا الحبيبة وتوارى جبلك الاشم ايها اللبناني وراء نيران الحروب ودخان المدافع . لئن تعذَّر عليك الرقاد في المدافن اللبنانية تحت السنديانة الكبيرة بقرب مياه العين المترنمة فها قد ضمتك اراضي مصر العزيزة الى صدرها الحنون . هذه تربة عربية وها نحو الموتى لمسات ملطفات كأنها يد ام شفيقة

ثم آمناً بين يدي رب قضيت عمرك باحثاً عنهُ . ولئن دعاك البشر كافراً وملحداً فالدين سر عظيم بين الخالق ومخلوقهِ . وانت تجدِّد ربَّك ارتياب اللاأدريين كما يرضيهِ ايمان المؤمنين . وما كان ربك الا حليماً غفوراً

ونحن الآسفون على كنز اغالتهُ المنية من بين ايدينا الشاعرون بافتقارنا الى عملك وشجاعتك وحنانك يوم تكشر الجمعية عن انيابها متهددة متوعدة يوم يؤلمنا مجاناً الغرباء والمعارف حتى الذين يدعون الصداقة فتضرب بيننا وبينهم حجاب الكبرياء . يوم نرى البريء يقع ضحيفة تحت اثقال والقوي مستبداً في ظلم . يوم يفطر قلبنا اثنين المتوجعين فلا نجد في يدنا القوة التي تساعد ولا لساننا الكلمة التي تعزي . يوم يعذبنا تعطشنا الى الجمال والكمال وننظر حولنا باحثين عنهما لنبرز لنا الشرير باثواب الدعوى والاكاذيب بالهجة الصدق وتشمئز نفسنا الحساسة لصغر الحياة فتلتجئ الى جمال العزلة وعذوبة السكوت سائلين الكواكب الفائزها والكون غايتهُ — اذ ذاك سنذكر ان لنا في الخلود خالداً

اذ ذاك نستحضر صورتك ونستحضر صفات عاليات اثارت اعجابنا واجلالنا فتكون لنا استاذاً صامتاً يرشدنا ذكره الى ما هو جميل شريف ويأتينا من عالم النور بافكار سامية تحيط بنا كاجنحة ارواح علوية

كذلك تكون محسناً في حياتك وفي مماتك . ومن كان مثلك كان خالد الاحسان لانهُ خالد الاثر

(ثاري زيادة)